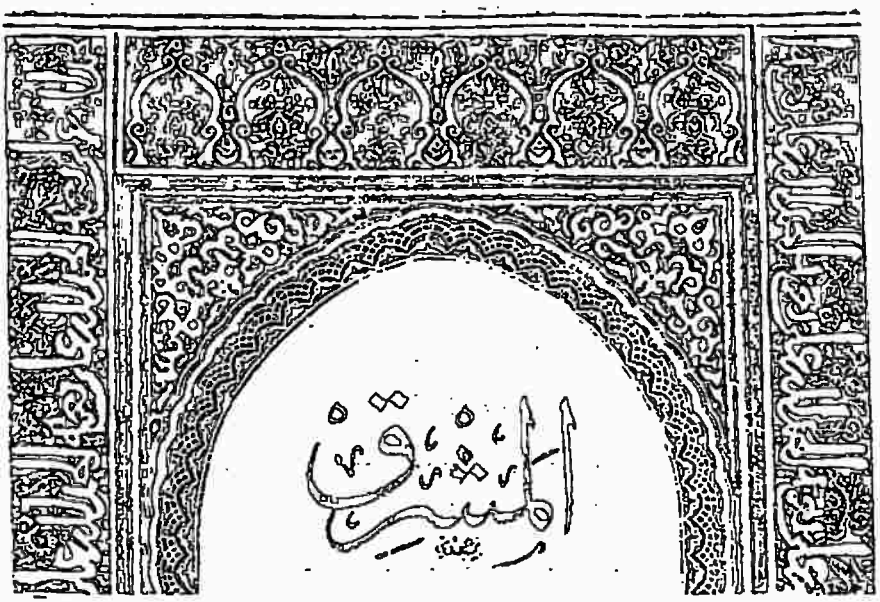

السنة الثلاثون

آذار ١٩٣٢

الرُّتَب الكهنوتيّة

في

الطائفتين المارونيّة والسريانيّة

بقلم المتوري اسحق ارملة السرياني

١

توطئة

اطلعت الصحف اللبنانية في وصف الاحتفال التاريخي الشائق الذي جرى صباح الاحد ١٠ كانون الثاني بكنيسة سيدة بكركي، مقام البطريركية السريانية المارونية ، في فرصة ارتقاء السيد الاثيل مار انطون عريضة ، مطران طرابلس ، السامي الاحترام ، الى عرش البطريركية الانطاكية . وقد أُتيح لنا حضور ذلك الاحتفال النادر الذي ازداد رونقه وبهاؤه بحضور قاصد رسولي ، وبطريركين ، وزهاء عشرين مطراناً ، وجم غفير من الاكليرس ، وأرباب المناصب الدينية والمدنية . فخيّل الينا اننا

في كنيسة مار بطرس الكبرى بانطاكية ، حاضرون تتويج احد بطاركتها المتبوعين ، نسمع الاحبار ينشدون التراتيل السريانية الرخيمة ، وهم محتفون بالمنتخب الجليل ، ناشرون بين ايديهم كتباً سريانية قيمة قديمة ، جرياً على عادات السلف ، يتناوبون في تلاوة الصلوات ، مشتركين في رتبة جلوس البطريرك الجديد على السدة الانطاكية وتسليمه عصا الرعاية البطريركية.

واذ كنا نتشبهم في ترنيم الاغاني السريانية الطقسية ، ونقابل ما يقولونه مع ما يقوله اساقفة طائفتنا السريانية في مثل هذا الاحتفال المقدس ، خطر لنا ان نكتب شيئاً عن طقوس الرتب الكهنوتية التي كانت وما برحت جاريةً في كلتا الكنيستين السريانيتين الشقيقتين بلغتهما وطقسهما وعاداتهما وزيهما واعيادهما واصوامها . وقبل الشروع في سرد ما عوّلنا عليه ، رأينا ان نورد كلمة عن اصل الطقس السرياني الانطاكي فنقول :

اصل الطقس السرياني الانطاكي

لا مشاحّة ان اول طقس كنسي انما ظهر في اورشليم ، ثم في انطاكية عاصمة الشرق ، باللغة السريانية الشائعة يومئذٍ في فلسطين وسورية كلتيهما ، كما أثبته جميع الكتبة المدققين شرقيين وغربيين[1] . ويتلخص من ذلك ان الملل السريانية الاربع اعني الملكية[2] (الروم) ، والمارونية ، والسريانية الشرقية (الكلدان)[3] ، والسريانية الغربية ، كان طقسها في الاصل واحداً ،

---

١) معجم الالهوت الكاثوليكي للاب ڤاليه (ص ١٦٠٢) ؛ والمقالة الثالثة من كتاب النصارى للعلامة السيد اقليمس يوسف داود ، مطران دمشق (ص ٣٥) ؛ ومقال البحاثة المدقق الاب لامنس اليسوعي في العدد الاول من المشرق ١٩٣٣ ص ١٤ بعنوان « سورية في زمن الفتح العربي » اذ اثبت مصرّحاً : « ان الموارنة ادخلوا الى لبنان اللغة الارامية (السريانية) التي اصبحت لغة الشعب السوري الحقيقية الجارية في احكام معاملاته التجارية . . . وفي تأدية واجباته الدينية في الكنائس . . . من انطاكية عاصمة البلاد الى اورشليم . . . »

٢) اطلق السريان اسم « ملكيين » على اتباع المجمع الخلقيدوني المقدس لان ملوك قسطنطينية كانوا من انصاره . ٣) سمّى البابا اوجانيوس الرابع ، عام ١٤٤٥ ، المرتدين من السريان الناطرة « كلدانًا » (المشرق ٣ [١٩٠٠] ٨٢١)

كما كانت لغتها ايضاً واحدة . بيد انه مع تمادي الاحقاب تفرّدت الطائفة السريانية الشرقية بطقس خاص بها ، منذ انفصالها عن الكنيسة الجامعة ، في اواسط القرن الخامس . امـا الطائفة السريانية الملكية فقد بدّلت طقسها الانطاكي ، في القرن التاسع او العاشر ، بالطقس البوزنطي اضطرارًا او تحبّباً او تزلّفاً ، واستخرجته من الاصل اليوناني الى السرياني مثبّتةً فيه بعض عبارات او الفاظ طقسية يونانية ، على ما صرّح بلسمون البطريرك الانطاكي الملكي في القرن الثاني عشر ، وكان يومئذٍ قاطناً في قسطنطينية . فقال : « ان كنائس الملكيين في سورية تبعت في عهده بيعة قسطنطينية في ليترجيّتيها » المنسوبتين الى مار باسيليوس ومار يوحنا فم الذهب العظيمتين . والاّ ، فلو لم تتبعها في ذلك ، لظلّت الى هذا الحين تستعمل طقسها السرياني القديم الذي لا يسع احداً ان ينكر انه اقدم من الطقس اليوناني ، الاّ من كان جاهلاً تواريخ الكنائس الشرقية بالمرّة .

بناء عليه بقيت الكنيسة المارونية والكنيسة السريانية الغربية محافظتين اشدّ الحفظ على طقسهما السرياني القديم ، وعلى لغتهما السريانية البحتة الى هذا اليوم . اما طقسهما فهو اقدم من سائر الطقوس البيعية لا في ليترجيتهما المنسوبة الى مار يعقوب[1] فحسب ، بل في صلواتهما القانونية التي تحتوي على الشيء الكثير من مصنّفات الآباء الذين عاشوا في القرن الرابع او الخامس او السادس كمار افرام († ٣٧١) ملفان البيعة الكاثوليكية ، ومار شمعون برصبّاعي الشهيد († ٣٤١) ، ومار ماروثا الميافرقيني († ٤٢١) ، ومار ربولا

١) قرأنا في مخطوط دير الشرفة النفيس ، المنسوخ عام ١٢٢٤م ، ص ٦٧٢ ، فقرة منسوبة الى مار افرام تفيد ان اول قداس أقامه سمعان الصفا كان اول اربعاء من اسبوع الرسل ، وهذا نصّها : « [illegible] » فاذا صحّت هذه الرواية اصبحت ليترجيّة مار بطرس ، التي يعتبرها السريان الموارنة اعتبارًا عظيماً ، اقدم من ليترجيّة مار يعقوب عينها . وعلى كل فكلتا الليترجيتين السريانيتين اقدم من ليترجيتي قسطنطينية اليونانيتين .

الرهاوي († ٤٣٥) ، ومار اسحق الانطاكي († ٤٦٠) ، ومار يعقوب السروجي († ٥٢١) الخ.

اما صلوات طقس البيعة اليونانية فاحدث من الصلوات الطقسية السريانية لان معظمها من قلم القديس يوحنا الدمشقي في منتصف القرن الثامن . ومنها ما أُنشئ في القرن التاسع ومبادئ القرن العاشر[1].

وقد حرص السريان الموارنة والسريان الغربيون على طقسهم الانطاكي القديم حرصهم على اثمن تراث واغلى كنز ، بخلاف اخوانهم السريان الملكيين الذين غيّروا ، كما قلنا ، وبدّلوا طقسهم الانطاكي بالطقس البوزنطي. ولولا سطوة ملوك قسطنطينية ونفوذهم ، لظلوا الى هذا الحين يستعملونه بلا ريب.

ولا يُعبأ ببعض الفاظ يونانية تسرّبت في الطقسين السريانيين القحين . فان ذلك لم يحدث الا بعد القرن الخامس ، وفي الكنائس الكبرى فقط ، وفي الاحتفالات المشهودة العمومية كالاحتفال مثلاً بدخول المطران اول مرة الى ابرشيته[2] كي يفهم الشعب عموماً ما يقال . على حدّ ما جرى في الاحتفال بجلوس غبطة البطريرك الانطاكي الماروني الجليل ، اذ لفظ احد الاحبار الافاضل خطاباً فرنسياً وجهه الى ارباب الدولة المنتدبة. فضلاً عن ان السريان في القرون الوسطى كانوا يتسابقون الى درس اليونانية ويبالغون في حذقها ، وينقلون منها عدة تآليف الى لغتهم[3].

وكيفما كان الامر فان الصحف السريانية الطقسية المصونة في خزائن عواصم اوربة وغيرها اقدم واكثر من الكتب الطقسية اليونانية. لان المخطوطات الطقسية الملكية ، سريانية ام يونانية ، لا يمكن ان يسبق عهدها القرن الحادي عشر ، ذلك يوم اخذ الطقس اليوناني قراراً في البيعة الملكية الانطاكية . وناهيك ان الملكيين في سورية يتعذّر عليهم ان يدلّونا او يطلعونا على كتاب طقسي نُسخ باليونانية في سورية ، حالَ كون دور الكتب تحوي الى هذا اليوم

١) الفصارى : ٨٥

٢) المنتطفات حمتها لنبطة السيد البطريرك اغناطيوس افرام رحماني ٣ : ١

٣) اطلب مقالتنا في المشرق (١٩٢٠ : ٤٩٥ و٥٥٧)

مئات من كتبهم الطقسية في السريانية ، كمخطوطات دير طورسينا ، ودير مار بنطاليمون بانطاكية ؛ ومخطوطات دير القديسة تقلا ، ودير الشاغورة بصيدنايا التي حمل الهوس متولي ذينك الديرين فالقوا جميع صحفها السريانية الثمينة في التنور واحرقوها باسرها تخوّفاً من ان ينتصبها السريان[1] . ومن هذه الكتب السريانية الملكية ما برح الى يومنا مصوناً في دير الشرفة ، وفي بكركي وقنوبين ، وفي دير الآباء اليسوعيين ببيروت ؛ وفي مكتبة غبطة بطريركنا الانطاكي مار اغناطيوس جبرائيل الاول الجزيل الطوبى ، وفي غيرها .

ونضيف الى ذلك كله ان السريان الملكيين في سورية ظلوا يقضون طقوسهم البيعية في السريانية حتى اواخر القرن السابع عشر . بل ان احد كهنة الملكيين الارثذكس في قرية معلولا بقي يقدّس في السريانية حتى اواسط القرن الماضي ، كما اورد العلّامة السيد اقليميس يوسف داود في قصاراه (ص ٣٦) .

ألا يحقّ لنا اذاً ، بل ألا يتحتم علينا بعد هذا ، ان نطري آباء الطائفتين السريانيتين الشقيقتين ، ونبدي لهم جميل الشكر على ما اتخذوه من الذرائع وما كابدوه من الاعراق والمصاعب صوناً للفتهم الشريفة وضنّاً بطقسهم الانطاكي الرسولي ؟ بلى ! فقد اوجبوا تدريس السريانية في جميع مكاتبهم ومعاهدهم وأديارهم ، ومنعوا منعاً باتّاً قاطعاً تبديل طقسهم وعاداتهم .

هذا المجمع اللبناني الشهير ، الذي عُقد عام ١٧٣٦ في دير لويزة بلبنان ، فانه يكرّر مرات وجوب تعليم السريانية في المدارس . قال في الصفحة ٢٢[2] : «يجب على السيد البطريرك السامي الاحترام ان يعهد الى رجال اكفاء . . . ان يضعوا . . . كتاباً في قواعد اللغة السريانية . . . يعمّ استعماله في المدارس الابتدائية» . وامر المعلّمين (ص ٥٣٥) : « ان يرعوا النظام العامّ فيعلّموا الاحداث في المدارس اولاً القراءة والكتابة في السريانية . . . وقواعد النحو والصرف في السريانية » . وكتب

---

١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للكاتب الاديب حبيب زيات . والمشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩٧ ؛ و ١١ [١٩٠٨] : ٩٦١)

٢) تدلّ الارقام على صفحات الكتاب المطبوع في جونية عام ١٩٠٠ ، نقل السيد يوسف نجم الحميد الاثر .

العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الخالد الذكر في كتاب الشرطونيات (ص١٩٦) قائلاً : « فليتعلم الشمامسة الصغار القراءة السريانية ومطالع الالحان.. مجتهدين في ان ما يقرأونه على الشعب يفهمونه ». اما بشأن الطقس فقد قال آباء المجمع اللبناني (ص ٢٣) ما نصه : « يحظر هذا المجمع المقدس على الرؤساء.... وغيرهم ايا كانوا ان يتساهلوا في مس الطقس بشيء من الزيادة او الحذف ... ».

وبمثل ذلك حتم آباء الطائفة السريانية في مجمع الشرفة (ص٤٣و٤٤و٣٣٧)[1] الذي عقدوه عام ١٨٨٨ ، موجبين انعاش اللغة السريانية وتعميم معرفتها بحيث لا تخلو مدرسة من مدارس الطائفة من ان تعلمها. وقس على ذلك مسئلة الطقس.

ليت اماني هؤلاء الآباء النبلاء تتم حقيقة . اذاً لانهضوا لفتهم الشريفة من كبوتها ، وأعادوا طقسهم الجليل الى سالف مجده ! ! !

بعد هذا التمهيد ناخذ في البحث عن طقوس الرتب الكهنوتية في كلتا الطائفتين مستندين في ذلك بادئ بدء الى مجموعة العلامة السيد يوسف لويس السمعاني ، التي نشرها في رومية عام١٧٤٩ ، والى شرطونيات السيد اسطفانس الدويهي ، والى اللمعة الوفية للسيد يوسف دريان . والى المجمعين اللبناني والشرفي ، مثبتين اصل تلك الرتب ، ملتمين بما تسرب اليها مع كور القرون من الحشو والاضافة.

طقوس الرتب الكهنوتية اجمالاً

يتولى الاسقف دون من سواه جميع الرتب الكهنوتية ، وتسمى في السريانية [illegible]=ترقية ، وهم [illegible]=وضع اليد ، و[illegible]= شرطونية . وكان الاساقفة قديماً يرخصون لرؤساء الديورة ان يرقوا القسوس الى مناصب بوادطة وخوارنة وخوريفقوسيين. لكن آباء المجمع اللبناني (ص ٣٣٩) الغوا تلك العادة ، وأذنوا لرؤساء الاديار ان يلبسوا التاج ، ويباركوا المذابح ، وحياض المعمودية ويرسموا المرتلين والقارئين فقط . وكانت هذه

---

١) تدل الارقام على صفحات الكتاب المطبوع في دير الشرفة ، عام ١٩٢٢.

عادة رسامة رؤساء الاديار للمرتلين والقارئين جارية في الكنيسة السريانية ايضاً، فنسخها آباء مجمع الشرفة (ص ١٧٢).

ولتكميل الرسامات في البيعة السريانية الانطاكية شروط اخصها :

١ً ان يحتفل بها الحبر متوشحاً بحلته كلها اثناء القداس الالهي ، وفي الكنيسة. ولذا يقول: ܡܬܩܢܣ ܕܗܝܟܠܐ ܘܒܝܥܬܐ =ارتقي في بيعة الله المقدسة وينبغي ان يبدأ بالرسامة بعد الرفعة ، قبل تناوله القربان الاقدس.

٢ً يتحتم على المتأهب للرسامة ان يجثو على احدى ركبتيه او على كلتيهما معاً حسبما تتطلب الرتبة التي يُرقى اليها. ويُستثنى من ذلك عند السريان المزمر او المرتل. فانه يظلّ واقفاً.

٣ً يجب ان ينادى باسمه واسم مذبح الكنيسة الكبيرالذي يرتسم عليه.

٤ً ان يرفّ الحبر بيديه على الاسرار وعلى المرتسم ، ويشخص عينيه الى السماء عند تلاوته صورة الرسامة.

٥ً ان يضع عينيه على هامة المنتخَب في الرتب الكبيرة فقط ، ويتلو الصورة . ووضع اليد شرط ضروري لصحة الرسامة ، وهو متسلسل في الرتب الكهنوتية بسلسلة غير منفصمة. ويشير الى ذلك ابونا مار افرام ، صنّاجة الروح القدس ، بقوله : « ظهر العليّ على جبل سينا ووضع يده على موسى وموسى وضعها على هارون . وتسلسل هذا الوضع الى يوحنا المعمدان . ويوحنا وضع يده على المخلص في نهر الاردن . والمخلص وضع يده على رسله »[1] . وكذا شرّاح الاسرار طرًّا وفي جملتهم العلامة الدويهي في الشرطونيات (٢٢٢).

٦ً ان يحتفل بالدرجات الكبيرة يوم احد او عيد بطالة ، كل درجة بمفردها. اما الدرجات الصغيرة فيجوز ان تجري في اي يوم كان ، وبجملتها معاً.

٧ً ان يختم الحبر بيمينه بشكل صليب جبهة المنتخَب في الدرجات الصغيرة.

٨ً ان يرقّي المنتخَب درجة فدرجة.

٩ً ان يناوله الاسرار المقدسة ويحيّيه.

---

١) لا توجد هذه الجملة في بعض النسخ الخطية. وهي واردة في جميع النسخ المطبوعة. هذه الجملة في بعض النسخ الخطية. وكلا النصّين محفوظان في الطقسين معاً.

١٠ ان يكتب في دفتر خاص اسم المنتخَب واسم ابيه ولقبه ووطنه وعمره ومكان مولده ، والبيعة التي يُرسم عليها ، وتاريخ رسامته سنة وشهراً ويوماً . وان يسجّل ذلك بالسريانية كما نصّ مجمع الشرفة (ص ١٦٠) هكذا بما تعريبه : « رقّى الروح القدس فلان بن فلان فلان من مدينة او قرية ... مرتلاً او قارئاً الخ. لكنيسة ... على مذبح ... في مكان ... بيد فلان الاسقف او المطران او البطريرك . في اليوم ... والشهر ... والسنة ... مسيحية . »

وقد ضبط السريان والموارنة الرتب الكهنوتية الاصلية او الاولية ، وجعلوها تسع رتب وفقاً لرتب الاجناد العلوية ، على هذه الصورة :

الملائكة	المزمّرون
رؤساء الملائكة	القارئون
الرئاسات	الرسالبون
السلطنات	الشمامسة
القوّات	القسوس
السادات	المتوارنة
الكراسي	الاساقفة
السواريف	المطارنة والجاثالقة
الكواريب	البطاركة (١

قال المجمع اللبناني (ص ٢٨١) : « كل ما عددناه آنفاً من الرسامات او التبريكات ... نامر بحفظه التام بالتدقيق والاجتهاد على حدّ ما ألقاه الينا آباؤنا وعلى ما هو مرسوم في كتاب شرطونية كنيستنا الانطاكية بالسريانية ولا نسمح بان يُغفل شيء منه . »

ثم ان آباء الطائفتين قسموا الرتب الكهنوتية ثلاثة اقسام وهي : الشمّاسية ، والقسيسية ، والحبرية . فالشماسية تشتمل على الدياقونية ، والرسالية ، والقارئية ، والمرتلية . وتشتمل القسيسية على القسيسية ، والبرذيوطية ، والخورية ، والخوريفقوسية . وتشتمل الحبرية ، او رئاسة الكهنوت ، على الاسقفية ،

١) الدوحي ٩٦ ، وشروح البطريرك يوحنا برّ وهبون (+ ١١٩٣) الخ.

والمطرانية ، والجاثليقية ، والبطريركية . وقد تفرّد السريان دون الموارنة برتبة الجاثليق بعد انفصالهم من الكنيسة الكاثوليكية، وهم يسمونه مفريانا[1]

ثم ان لكلّ من الدرجات رتبة خصوصية: وهي ١ً رتبة المرتل. ٢ً رتبة القارئ. ٣ً رتبة الرسالي. وهي من الرتب الصغيرة لانها لا تشتمل على وضع اليد بل تُحسب ترقية . وكانت هذه الدرجات فيما سلف تُمنح منفصلة اي بمدد فترات بين درجة ودرجة الّا ان يرى الحبر مزيد فائدة في الخلاف (المجمع اللبناني ٢٥٤) وعلى ذلك آباء مجمع الشرفة ايضاً كما نرّهنا.

٤ً رتبة الشماس. ٥ً رتبة القسيس. ٦ً رتبة الاسقف. وهذه الرتب الثلاث هي من الرتب الكبيرة المقدسة، لانها تحتوي على وضع اليد ولا تُمنح الا متقطعة وفي ايام الآحاد والاعياد كما قلنا.

اما رئاسة الشمامسة (الارخذياقونية) والبرديوطية والخورية والخوريفسقوسية (والمفريانية) والبطريركية فليست رسامات بل وظائف . ولهذا لا تُمنح الا بطريقة التبريك المرسومة في كتاب الحبريات (المجمع اللبناني ٢٨١).

---

١) اطلب مقالتنا في المشرق (٢٢ [١٩٢٤] : ١٨٣) بعنوان « جاثالقة المشرق ومفارنة السريان » .

(للبحث صلة)